الباب الخامس عشر

فضل زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

فضل المدينة المنورة

أرض الله :

هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه إلى المدينة المنورة ، فشرّفها الله بهجرته إليها صلى الله عليه وسلم ، فصارت مركزَ الدعوة إلى الله ، وحصن الدفاع عن الإسلام كما كانت مهبط الوحى ومنزل ملائكة السماء ، وقد سماها كتاب الله « أرض الله » فى قوله تعالى :

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فتُهَاجِرُوا فيها) .

ويقول الإمام القرطبى إن الآية تشير إلى جماعة من أهل مكة كانوا قد أسلموا، وأظهروا للنبى صلى الله عليه وسلم الإيمان به ، فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم أقاموا مع قومهم ، وفتن منهم جماعة فافتتنوا ، فلما كان أمر بدر ، خرج منهم قوم مع الكفّار فنزلت الآية، وقولهم (كنّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأرْضِ) أى فى مكة هو اعتذار غير صحيح ، إذ كانوا يستطيعون أن يتحايلوا على الخروج من مكة ، ولذلك تقول لهم الملائكة تقريعًا لهم :

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعةً فَتُهَاجِرُوا فِيها) . أى المدينة المنورة ، وما أفخر ما حلاها الله به فلقبها بأرض الله ، فلئن كانت مكة المكرمة حرم الله فالمدينة المنورة أرض الله ، وكيف لايجعلها الله أرض الله ، وقد هاجر إليها رسول الله وصارت آخر الأمر مثواه ؟

فضل المدينة :

وقد جاء فى فضل المدينة المنورة أحاديث كثيرة ، وكفاها فخراً أن يقول فيها صلى الله عليه وسلم « إن الإيمان ليأرِزُ [١] إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحْرها » ، وقد قيل فيها بحق :

دار الحبيب أحق أن تهـواهـا ... وتَحِنّ من طرب إلى ذكراها
وعلى الجفون متى هممت بزورة ... يا ابن الكرام عليك أن تغشاها
لا كالمدينة منزل وكفى لهـا ... شرفًا حلولُ محمـد بفناهـا
جزم الجميع بأن خـير الأرض ما ... قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علـت ... كالنفس حين زكت زكى مأواها

وقال ابن وهب : سمعتُ مالِكًا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال : إن المدينة تَبَوَّأت بالإيمان والهجرة ، وإن غيرها من القرى افتُتِحَتْ بالسيف ، ثم قرأ (والذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إليهِمْ . . .) الآية .

وهو ابتداء كلام فى مدح الأنصار والثناء عليهم ، فإنهم سلَّمُوا الفيء[٢] للمهاجرين ، وكأنه تعالى قال : الفيء للفقراء المهاجرين ، وقد أحبهم الأنصار ولم يحسدوهم على ماصفا لهم من الفيء .

ويقول صديقى الفاضل الحاج عبد الوهاب عرب — وهو من أهل الطائف بالسعودية — فى قصيدة أهداها لى فى مناسبة تعارفنا بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم وذلك فى سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦١م) :

بَلْدةٌ قـدَّسها الرحمـنُ إذ ... حازت الفخرَ بخيْرِ المـرسلين
فهى والبيت العتيـق المجتبى ... منبعُ الدين ومأوى اللاجئـين
كل عـام لى إلى أكنافهـا ... رحلة أشفى بهـا قـلبى الحزين

---

(١) يأرز أى ينضم ويجتمع بعضه إلى بعض فيها .

(٢) الفيء : الأموال التى تؤول للمسلمين من أعدائهم بغير حرب .

كم سَفَحْتُ الدمع إذ لم أرهـا ... مرة يا صاح فى كر السنين
وضربت الكفَّ بالكف فيا ... حسرتى للبُعْدِ عن ذاك القطين
وبقلبى من جراحات النوى ... ألمٌ يبدو لعين الناظرين
حرمُ المختار أسمى منزلا ... بفؤادى من قصور المترفين
إذ به الروضةُ قرب المصطفى ... كم سعى جبريل فيها للأمين
كم بها من عَبْرةٍ فياضة ... لمُحِب كم بها من صالحين
كم تبارى لثراها هائمٌ ... كم علا فيها دعاءُ الساجدين
كم تلا القرآن فيها مُخْبِت ... وسعى للخير سعى المحسنين
فلآثار سجود المصطفى ... فى ثراها طيب عَرْفِ الياسمين

تربة المدينة مؤمنة :

أقول : ولله در القائل :

أرض مشى جبريلُ فى عَرَصاتها ... والله شرَّف أرضَها وسماها

وقد حدثنى صديقى الصالح المبارك الحاج حسين أبو العلا (وهو مدنى يسكن المدينة المنورة ، وله بها بستان قريب من الحرم الشريف) — فقال إنه حين أراد أن يزرع بستانه دق فى أرض البستان ما سورة مياه ارتوازية ، ولما ذاقَ الماء الذى أتوْه به أول مرة وجده مالحاً لاتصلح به الزراعة ، فقال يارب : إن رسولك الكريم صلى الله عليه وسلم وصف المدينة فقال : « والذى نفسى بيده إنَّ تربتها لمؤمنة » ، والمؤمن حلو يارب . فكيف خرج الماءُ مالحًا . قال عفا الله عنه ومدّ فى عمره : فألهمنى ربّى أنْ ننزل بالماسورة مسافة أخرى ، فقلت : انزلوا بالماسورة إلى مسافة أبعد ، قال ففعلوا ، فجاء الماء حُلْوا زُلالا ، وجاء أوفر مما أردنا ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وعلى الرغم من أنى أصادقه من سنوات . فإنه كاشفنى من نحو عامين لأول مرة بأنه كان يستمع لدرسى الذى كنت ألقيه بالحرم الشريف ، فكان يعجبه ما يسمعه منى ، فقال : يارب أشهدك أنى أحب هذا الرجل فيك ، قال : ولم أصارحك بها قبل ذلك ، فانظر إلى فضله وأدبه ، وهو رجل مبارك ، ومُقْبل على الله بهمة

الصالحين حتى إنه لا يصلى الصلوات الخمس إلا فى الحرم الشريف ، كما أنه يعتكف فيه العشر الأواخر من رمضان كل عام ، وينفق الكثير فى سبيل الله .

حفل مبارك :

وفى العام الماضى دعانا فى عيد الفطر إلى حفل بقصره المشيد فى بستانه ، فوجدنا سرادقًا كبيراً قد اجتمع فيه أحبابُه من زوار الحرم الوافدين من البلاد الإسلامية المختلفة ، وتغنى المغنون على مسمعنا بالمدائح النبوية وذكرى المدينة المنورة ، وكان من بيننا نحن المصريين الشيخ سيد النقشبندى فتغنى بشعر العارف بالله سيدى الشيخ يوسف النبهانى الذى يقول فيه :

يا رعى اللهُ طيْبةً من رياض طاب فيها الهوى وطاب الهواء

وتغنى مغنى المدينة فقال :

يا عيدُ عُدْتَ فهل عادت ليالينا وهل ترنَّم فى الصحراء حادينا

وكان من بين الحاضرين أخى الصالح وزميلى الأستاذ أنور شلبى وكيل وزارة الخزانة ، فسرّه الحفل غاية السرور حيث لم يكن شهده معنا قبل ذلك .

دعاء نبوى للمدينة :

قال ابن إسحق :

« وحدثت عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، فصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، قالت : فكان أبوبكر وعامر بن فهيرة وبلال مولىا أبى بكر فى بيت واحد فأصابتهم الحمى ، وكانوا يهذون وما يعقلون من شدة الحمى فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت ، قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدها

وصاعها[1] وانقل وباءها إلى مهيعة (الجحفة وهى ميقات أهل الشام) .

أقول : وقد استجاب الله دعوة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنك لتلمس حب المدينة بين جنبيك قبل أن تذهب إليها . فإذا رأيتها وعشت فيها ، نسيت بها وطنك وكأنها الموطن الأصلى الذى نشأت فيه . أما بركة الطعام فباقية تشاهدها بنفسك ، وترى فيها المعجزة النبوية محققة . وكنت فى أول أمرى بالمدينة أطلب من صاحب الدار التى ننزل فيها وهو السيد حامد بافقيه وهو من السادة الأشراف — رحمه الله رحمة واسعة — أن يشترى لنا أقة من اللحم ونحن خمسة رفقاء ، فيتعجب الرجل رحمه الله مما أطلب ويقول فى لهجته المدنية اللطيفة : أقة ؟ إيش تعملوا بالأقة ، هذا كتير ؛ هنا المدينة فيها البركة بدعوة النبى ، فأقول له: وماذا تريد أنت يا عم حامد فيقول : نصف أقة وهو كتير على غداكم وعشاكم ، ثم تأكد لى صدق كلامه عمليًّا ، وتلك بركة طعامها ، أما حلاوته فحدث عنها ولا حرج ، فصلوات الله وسلامه على من أرسله الله رحمة للعالمين ؛ وما أرق أهل المدينة حين كانوا يتغنون بمدح مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم مجتمعون فى محافل ذلك السيد المبارك فيهزّوننا بقولهم :

خـــير البريـــه نظـــره إليـــا
مـــا أنـــت إلاّ كـــنز العطيـــه

قال ابن إسحق :

ولما مات أبو أمامة أسعد بن زرارة ، اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو أمامة نقيبهم (أحد نقباء العقبة كما سلف القول) فقالوا له : يا رسول الله ، إن هذا قد كان منّا حيث قد علمت ، فاجعل منّا رَجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم أخوالى (لأن الخزرج أخوال أبيه صلى الله عليه وسلم) وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم » ، فكان بنو النجار يزهون بأن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نقيبهم .

---

(١) يعنى بارك لنا فى الطعام الذى يكال بالمد والصاع . والمد رطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلث عند أهل الحجاز ، والصاع أربعة أمداد عند الحجازيين .

المساجد المفضلة :

ورد فى الحديث الشريف « لاتشدّ الرحالُ إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا » ، وعنه عليه الصلاة والسلام « الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاة فى مسجدى بألف صلاة ، والصلاة فى بيت المقدس بخمسمائة صلاة » .

ويقول الإمام تقى الدين السبكى : ليس فى الأرض بقعة لها فضلٌ لذاتها حتى تُشَدّ الرحال لذلك الفضل غير البلاد الثلاثة ، قال : ومرادى بالفضل ما شهد الشرع باعتباره ورتب عليه حكمًا شرعيًّا ، وأما غيرها من البلاد فلا تُشَدّ إليها لذاتها بل لزيارة أو لجهاد أو علم أو نحو ذلك من المندوبات أو المباحات .

مسجد التقوى :

وقد أخرج الإمام مسلم رضى الله عنه عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذى أسّس على التقوى[1] قال : « مسجدكم هذا » .

وقال الإمام مالك إنه مسجد المدينة ثم قال : أين كان يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس فى هذا ويأتونه أولئك من هنالك ؟ وقال تعالى : (وتركوك قائمًا) فإنما هو هذا .

وقد أخرج الإمام أحمد رضى الله عنه عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من صلّى فى مسجدى أربعين صلاة كتبت له براءة من النار وبراءة من العذاب وبرئ من النفاق » .

أفضل البقاع :

وقال القاضى عياض رضى الله عنه : أجمعوا على أن موضع قبره صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض ، وأن مكة والمدينة أفضل بقاع الأرض بعده ، ثم

---

(١) وهو المذكور فى قوله تعالى (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) الآية .

اختلفوا فى أيهما أفضل ، فذهب عمر وجماعة من الصحابة إلى تفضيل المدينة وهو قول مالك وأكثر المدنيين ، وذهب أهل الكوفة إلى تفضيل مكة وبه قال ابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك ، وإليه ذهب الشافعى .

أقول : وما من نفس مؤمنة إلا وتحنّ إلى كل من مكة والمدينة ، حرسهما الله من كل سوء ، ففى مكة بيت الله الحرام ، وفى المدينة روضة نبينا المختار عليه الصلاة والسلام ، ولسان المشتاق يحنّ إلى كل منهما ويقول :

هى الدار ما شوقى القديم بناقص ... إليها ولا دَمْعِى عليها بجامدِ

أو يقول :

روحى على بعض دور الحى حائمة ... كَظَامِئِ الطيْرِ إذ يهفو على الماء

ويرحم الله الشيخ النبهانى إذ يقول متشوقًا إلى المدينة المنورة :

يارعى الله طيْبة من ريـــاض ... طاب فيها الهوى وطاب الهواء
شاقنى فى ربوعها خير حى ... حل لا زينب ولا أسماء
حيث قبر الحبيب يعـــلوه من نو ... ر قباب أقـــلها الخـــضراء

بين مكة والمدينة :

وقد تنازع مدنىّ ومكىّ فى فضل مكة والمدينة . وتعصب كل منهما لبلده فى شعر طويل ، فأجابهما ناسك كان يقيم بجدة مرابطا فقال فيما قال — كما جاء فى الفتوحات المكيّة :

إنى قضيت على اللذيْن تماريا ... فى فضل مكة والمدينة فاسألوا
فلسوف أخبركم بحق فافْهَموا ... فالحُكْم وقتًا قد يجور ويعدل
يا أيها المدنى أرضك فضلُها ... فوق البلاد وفضل مكة أفضل
أرض بها البيتُ المحرَّمُ قِبْلة ... للعالمين بهـــا المساجد تعـــدل
حرم حرام أرضها وصيودهـــا ... والصيد فى كـــل البلاد محـــلل
وبها المشاعر والمناسك كلهـــا ... وإلى فضيلتها البريـــة ترحـــل
وبها المقام وحوض زمزم مُتْرعًا ... والحجر والركن الذى لايجهل

والمسجد العالى المحجر والصفـــا ... والمشعران ومن يطوف ويرْمُـــل
وبمكة الحسنات يضعف أجرها ... وبها المسيء عن الخطيئة يُسْأل
ما ينبغى لك أن تفاخر يا فتـى ... أرضًا بها ولد النـبى المرســل
وبها أقام وجاءه وحى السمـــا ... وسرى به الملكُ الرفيع المنزل
هل بالمدينة هاشميٌّ ساكـــنٌ ... أو من قريش ناشئٌ أو مكهل
إلاّ ومكـــة أرضـــه وقـــراره ... لكنهم عنها نبـــوا فتحولـــوا
وكذاك هاجرَ نحوكم لمّا أتى ... أنّ المدينة هجرةٌ فتحمّلوا
فأجرتمو وقريْتموا ونصرْتمـــو ... خيرَ البرية حقكم أن تفعلـــوا
فضل المدينة بيّنٌ ولأهلهـــا ... فضـــل قديم نـــوره يتهلـــل
من لم يقل إن الفضيلةَ فيكمـــو ... قلنا كذبْتَ وقول ذلـــك أرذل
لا خير فيمن ليس يَعْرف فضلكم ... من كان يجهله فلسنا نجهـــل
فى أرضكم قبرُ النبى وبيتُـــه ... والمنبر العالى الرفيـــع الأطـــول
وبها قبور السابقين بفضلـــهم ... عمر وصاحبه الرفيـــق الأفضل
والعترةُ الميمـــونة اللاتى بها ... سبقت فضيلة كل من يتفضـــل
آل النبى بنو علىّ إنهـــم ... أمسوا ضياء للـــبريـــة يشمـــل
إنّا لنهواهـــا ونهوى أهلهـــا ... ووداده حق على من يعقـــل
ساق الإله ليَطْن مكة ديمـــة ... تروى بها وعلى المدينة تسبـــل

مزايا المدينة المنورة :

هذا ومن مزايا المدينة المنورة أنها فتحت بالقرآن الكريم ولم تُفْتح بالسيف ، وأن الله تعالى اختص بها رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . .) أى المدينة لاختصاصها به اختصاص البيت بساكنه ، وقيل من بيته بها ، وقد سماها الله حسنة فى قوله تعالى (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة . . .) أى[1] مباءة حسنة وهى المدينة ، وقد حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف « من أخاف أهلَ حرمى أخافه اللهُ » وفى حديث آخر « حَرَمُ إبراهيم مكة وحرمى

(١) أى هيأ لهم المدينة سكناً .

المدينة » ، وترابها شفاءٌ للحديث الشريف « ترابها شفاء من كل داء » وكانت تسمى « يثرب» فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم « طيبة » ، وفى حديث آخر « إن الله سمى المدينة طابه » وفى خبر : « والذى نفسى بيده إنّ تربتها لمؤمنة » وفى آخر : « إنها مكتوبة فى التوراة مؤمنة » وقد سمّاها الله فى كتابه الكريم« مُدْخَل صدق » وذلك فى قوله تعالى :

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً) . فمدخل الصدق : «المدينة » ، ومخرج الصدق : « مكة » . وتأمل كيف قدم الله المدخل على المخرج مع أن المخرج فى الترتيب مقدم على المدخل . والسلطان النصير : « هم الأنصار » كما روى عن زيد بن أسلم . وصار اسم « المدينة » علماً عليها ولا يستعمل إلاّ معرفة . والنكرة اسم لكل مدينة . ونسبوا للكل مدينى . وللمدينة المنورة مَدَنِىّ . للفرق بين النسبتين .

المدينة وأهلها :

وفى الحديث الشريف : « من استطاع أن يموت بالمدينة فَلْيَمُتْ » . ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك .

وناهيك بقوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أخاف أهلَ المدينة فقد أخاف ما بين جنبىّ » أى قلبى وروحى . فانظر إلى عطفه وغيرته صلى الله عليه وسلم على جيرانه بالمدينة المنورة .

وقد كان صديقنا الكريم الذى كنا ننزل فى داره وهو السيد حامد بافقيه طيّب الله ثراه . يعتز بهذا الجوار السعيد ويكرر كثيراً على مسمعنا : نحن فى كفالة الرسول صلى الله عليه وسلم .

أكرم بقعة :

ولابن الجوزى عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قُبض النبى صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى دفنه ، فقال علىّ كرم الله وجهه : ليس فى الأرض بقعة أكرم

على الله من بقعة قبض فيها نفس حبيبه صلى الله عليه وسلم، قال الإمام السمهودى فى كتاب خلاصة الوفاء معقبًا ، فهذا أصل الإجماع على تفضيلها لرجوع الباقين إليه ولقول أبى بكر رضى الله عنه حينئذ : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لايُقبض النبى إلا فى أحب الأمكنة إليه ، رواه أبو يعلى ، قال وأحبُّها إليه أحبُّها إلى ربّه لأن حبه تابع لحب ربه ، قال : وقد سلكت فى تفضيل المدينة هذا المسلك وقد صح قوله صلى الله عليه وسلم : «اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشد » أى بل أشد ، كما رُوِىَ به ، وأجيبت الدعوة حتى كان يُحَرِّكُ[1] دابته إذا رآها من حبها وقال : « ما على الأرض بقعة أحب إلىّ من أن يكون قبرى بها منها » .

ويقول الإمام السمهودى فى كتابه المذكور : قال عمر لعبد الله المخزومى : أنت القائل: مكة خير من المدينة ؟ فقال عبد الله : هى حرم الله وأمنه وفيها بيته، فقال عمر : لا أقول فى حرم الله وبيته شيئًا ، ثم كرر عمر قوله الأول فأعاد جوابه فأعاد له عمر : لا أقول فى بيت الله وحرمه شيئًا ، فأشير إلى عبد الله فانصرف .

وقال الإمام السمهودى رضى الله عنه : قيل للإمام مالك أيما أحب إليك المقام هنا يعنى بالمدينة أو بمكة ؟ فقال: «ههنا، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلا سلك عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجبريل عليه السلام ينزل من عند رب العالمين فى أقل من ساعة ؟ » . وأضاف الإمام السمهودى قائلا : وقد ثبت فى الأحاديث تفضيل الموت بالمدينة فيثبت تفضيل سكناها لأنها طريقه .

وأضاف الإمام السمهودى يقول كذلك : وفى الصحيحين « أمرتُ بقرية تأكل القُرَى يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد» ، وفى صحيح مسلم حديث « يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه هلُمّ إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . والذى نفسى بيده لا يخرج أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه » وفيه إشعار بذم الخروج منها مطلقًا وهو عام أبداً كما نقله المحب الطبرى عن قوم وقال إنه ظاهر اللفظ . وفى حديث الصحيحين « إن الإيمان ليأرِزُ إلى المدينة كما تأرز الحيّةُ إلى جُحْرها » أى تنقبض وتنضم وتلجأ مع أنها أصل انتشاره . فلكل مؤمن من نفسه سائق

(١) أى يجعل الدابة تسير بسرعة .

إليها فى جميع الأزمان لحبه فى ساكنها صلى الله عليه وسلم .

ولأبى يعلى عن العباس رضى الله عنه قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة فالتفتَ إليها وقال « إن الله برّأ هذه الجزيرة من الشرك » .

وفى الصحيحين « من صبر على لأوائها وشدّتها كنتُ له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة » وفى صحيح البخارى مرفوعاً « لا يكيد أهلَ المدينة أحدٌ إلا انماع كما ينماع المِلْحُ فى الماء » . ولمسلم « من أراد أهلَ هذه البلدة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء » . ولئن كان لمكة مزية العدد (أى فى الحسنات) فللمدينة مزيّة البركة والمَدَد . ولئن كان لمكة جوار بيت الله تعالى فللمدينة جوار حبيب الله صلى الله عليه وسلم وهو أكرم الخلق على الله تعالى . وفى الصحيحين « اللهمّ اجعل بالمدينة ضِعْفَىْ ما جعلتَ بمكة من البركة » . وفى الصحيحين أيضاً « اللهم باركْ لهم فى مِكْيالهم وبارك لهم فى صَاعهم وبارك لهم فى مُدّهم » . ولمسلم « اللهم بارك لنا فى مدينتنا . اللهم بارك لنا فى صاعنا ، اللهم بارك لنا فى مدّنا ، اللهم بارك انا فى مدينتنا ، اللهم اجمع مع البركة بركتيْن » . وفى الصحيحين وغيرهما حديث « على أنقاب المدينة ملائكة يحرسونها لايدخلها الطاعون ولا الدجّال » .

وفى الصحيحين حديث « إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لها ، وفى رواية — ودعا لأهلها — ، وإنى حرّمتُ المدينة ، كما حرم إبراهيم مكة » . وللبخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « إن الله حرم ما بين لابتى المدينة على لسانى » « قال وأتى النبى صلى الله عليه وسلم بنى حارثة فقال : « أراكم يا بنى حارثة قد خرجتم من الحرم » ثم التفت فقال : « بل أنتم فيه » . . ولمسلم « المدينة حرم ما بين عير إلى ثور » (وهما جبلان بها) .

ولأبى داود مثله وزاد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يُختلى[1] خلاها[2] ، ولا يُنفّر صيدها ، ولا يَلتقِطُ لقطتَها إلاّ من أشاد بها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ، ولا أن يقطع منها شجرة إلاّ أن يعلف رجل بعيره » .

---

(١) يختلى : أى يقطع .

(٢) الخلا (مقصوراً) : النبات الرطب الرقيق .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : لو وجدت الظبا بين لابتيها ما ذعرتها . وجعل اثنى عشر ميلا حـــول المدينة حمى . وفى الصحيحين عن عبد الله بن زيد « ما بيْن بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » وللبخارى عن أبى هريرة مثله وزاد « ومنبرى على حوضى » . وللبخارى ومسلم عن ابن عمر « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

طريق النور :

أقول : وإذا أردت أن ترى طريق النور بنفسك. فاذهب إلى أرض الحجاز ، واسلك الدرب الذى سلكه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرون إلى المدينة المنورة . وانظر إلى طوله وأنت تقطعه بالسيارة السريعة . وقَدِّرْ كَمْ تحمَّلوا فى قطعه على الإبل من المشقة فى عزم أهل الإيمان وهمة أهل اليقين ، وإذا استرحت قليلا فى بدر فاستنشق رائحة الجنة عندشهدائها. وتَطلَّع إلى الجبال بينها وبين المدينة . وإلى خشونة الصخور على جانبى الطريق المرصوف . وقدِّر لسلفك الصالح جهادهم فى حماية العقيدة التى وصلت إليك منهم وأنت ناعم البال فى أمن وإيمان . واستغفر لهم كما أمرك الله تعالى . واستنشق روائح المدينة وتطلع إلى مائها وهوائها ونورها .

ولقد كنت أسير فى ذلك الدرب المبارك وحان ميعاد العصر . فآويت إلى مكان فى جانب الطريق فصليت العصر مع أصحاب لى على الرمال . وإذا بى أتذكر فجأة قول الإمام ابن دقيق العيد رضى الله عنه :

قف بالمنازل والمناهل من لدن ... وادى قُباء إلى حمى أم القـــرى
وتَوخَّ آثار النبى فضع بهـــا ... متشرفًا خديك فى عَفَرِ الثَّرى
وإذا رأيت منازل الوحى الـــتى ... نشرت على الآفاق نـــوراً أنورا
فاعلم بأنك ما رأيت شبيهَه ... مذ كنت فى ماضى الزمان ولا يُرى

فعملت بنصيحة الإمام الذائق . ووضعت خدى على التراب الذى مشى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض الطيبة ، التى أشرق منها على يديه الكريمتين نور الإسلام . وكيف لا أفعل وقد قال أمير المؤمنين عمر رضى الله

عنه : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أنه أقسم بالتراب الذى مشت عليه قدماك ، فقال تعالى : (لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد) ، وكيف لا أفعل وقد قال حبر الأمة وحجتها ابن عباس رضى الله عنه : ماخلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله عز وجل أقسم بحياة أحد غيره — يشير ابن عباس إلى قوله تعالى (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) أى وحياتك إنهم يتحيرون ؛ ويرضى الله عن الإمام البوصيرى إذ يقول فى بردته المباركة :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

الفصل الثانى

فضل زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم

فضل مثواه صلى الله عليه وسلم :

كان صلى الله عليه وسلم يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بين نسائه تطييباً لقلوبهن وكان يقول أين أنا اليوم ؟ أين أنا غداً ، وكان فى مرضه الذى توفى فيه يُطاف به محمولا على بيوت أزواجه إلى أن استأذنهن أن يقيم فى بيت السيدةعائشة وبقى حتى انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى ودفن صلى الله عليه وسلم فى حجرتها، لأن الأنبياء والمرسلين يدفنون حيث يقبض الله أرواحهم ، وقد قالت سيدتنا عائشة : فلما كان يوم قَبَضَهُ الله تعالى بين سحْرى[1] ونحرى صلى الله عليه وسلم .والبقعة التى دفن فيها صلى الله عليه وسلم هى أفضل بقاع الأرض ولذلك قال سيدى أبو محمد اليكرى رضى الله عنه :

جَزَم الجميعُ بأن خيرَ الأرض ما ... قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت ... كالنفس حين زكت زكا مأواها

حرمته صلى الله عليه وسلم :

هذا ، واعلم أن حرمته صلى الله عليه وسلم وهو فى قبره كحرمته صلى الله عليه وسلم فى حياته ، ففى كتاب الشفاء للقاضى عياض بسند جيد عن ابن حميد قال :

ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالِكًا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مالِك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد ،

(١) السحر : الرئة تريد أنه قبض وهو على صدرها ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فإن الله تعالى أدَّبَ قوماً فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) وَمَدَحَ قوماً فقال : (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّون أَصواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امتحنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ) . وإن حرمته مَيِّتاً ، كحرمته حيًّا فاستكان أبو جعفر .

وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو أتيت المدينة وأقمت بها فإن مت دفنت فى الرابع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر . فقال : والله لأن يعذبنى الله عزَّ وجل بكل عذاب إلا النار أحب إلى مِنْ أن يعلم أنى أرى نفسى لذلك أهلا .

الموت والحياة فى البرزخ :

يقول الإمام الزرقانى رضى الله عنه فى شرح المواهب اللدنية :

فإن قلت القرآن ناطق بموته عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى (إنك ميّت وإنهم ميتون) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنى امرؤ مقبوض » ، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » وأجمع المسلمون على إطلاق ذلك ، فأقول : أجاب الشيخ تقى الدين السبكى بأن ذلك الموت غير مستمر ، وأنه صلى الله عليه وسلم أُحْيِيَ بعد الموت حياة أخروية ، ولاشك أنها أعلى وأكمل من حياة الشهداء، وهى ثابتة للروح بلا إشكال ، وقد ثبت أن أجساد الأنبياء لاتَبْلى ، وعوْد الروح إلى الجسد ثابت فى الصحيح لسائر الموتى ، فضلا عن الشهداء، فضلا عن الأنبياء ، وإنما النظر فى استمرارها فى البدن[1] ، وفى أن البدن يصير حيًّا كحالته فى الدنيا أو حيًّا بدونها وهى حيث شاء الله تعالى ، فإن ملازمة الروح للحياة أمر عادى لا عقلى ، فهذا مما يُجوّزه العقل ، فإن صح به سمعٌ اتبع ، وقد ذكره جماعة من العلماء ويشهد له صلاة موسى فى قبره كما ثبت فى الصحيح ، فإن الصلاة

---

(١) بدن الإنسان جسده ، وقوله تعالى (فاليوم ننجيك ببدنك) . أى ننجيك يا فرعون بجسد لا حياة فيه .

تستدعى جسداً حيًّا . وكذلك الصفات المذكورة فى الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام ، ولايلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت فى الدنيا من الاحتياجُ إلى الطعام والشراب ، وغير ذلك من صفات الأجسام التى نشاهدها ، بل يكون لها حكم آخر ، فليس فى العقل ما يمنع من إثبات الحياة الحقيقية لهم ، وأما الإدراكات كالعلم والسماع فلا شك أن ذلك ثابت لهم ، بل ولسائر الموتى كما ورد فى الأحاديث .

أقول : وإذا كان الشهداءُ أحياءً عند ربهم يُرزقون كما دل على ذلك كتاب الله فكيف بالأنبياء والمرسلين ، وكيف بأمير الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم . وقول الله تعالى : (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجرُهُ عَلَى اللهِ وكَان اللهُ غفورًا رحيماً) ليس مقصورًا على حياته الشريفة وفى الحديث الصحيح : « إنما الأعمال بالنيَّات وإنَّما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ولأبى داود بسند صحيح عن أبى هريرة « ما من أحد يسلم علىَّ إلاّ رَدَّ الله علىَّ روحى حتى أرُدَّ عليه السلام » . وقد صدر الإمام البيهقى رضى عنه باب الزيارة بهذا الحديث الشريف . واعتمد على ذلك جماعة منهم الإمام أحمد رضى الله عنه لِتَضَمُّنِه فضيلة رده صلى الله عليه وسلم وهى عظيمة ؛ واستدل الإمام البيهقى بهذا الحديث على حياة الأنبياء . ويقول الإمام السمهودى رضى الله عنه : فهو صلى الله عليه وسلم يسمع مَنْ يُسلم عليه عند قبره ويرد عليه عالمًا بحضوره عند قبره . وكفى بهذا فضلا حقيقًا بأن يُنْفَقَ فيه ملكُ الدنيا حتى يُتوصَّل إليه . ولابن النجار عن إبراهيم بن بشّار : حججتُ فى بعض السنين فجئتُ المدينة فتقدمتُ إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فسمعت من داخل الحجرة : وعليك السلام .

وجاء فى تذكرة القرطبى عن شيخه أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى الشهداء فالأنبياء أحق بذلك وأولى .

وفى مناسبة حياة الشهداء أقول إنى بحمد الله رأيت الوصف الذى وصف الله به الشهداء فى رؤيا منامية سعدت فيها — وكنت عندئذ بالمدينة المنورة — برؤية شهيد فَرِحٍ جداً مستبشرٍ للغاية ، يتحرك حركات سريعة وقوية من الفرح والاستبشار ، وتعجبت من منظره ولم أعرفه ، فقال لى شخص فى المنام : هذا عبد الله بن[1] رواحة ، وقمت من نومى مسروراً بهذه الرؤيا ، ولم أكن أذكر اسمه الأول « عبد الله » إنما كنت أعرفه باسم « ابن رواحة » فسألت أحداً وفتأنى عن اسم ابن رواحة الكامل فقال لى « عبد الله » فقلت صدق الله تعالى فى وصفه للشهداء (أحياء عند ربهم) ، وفى قوله فى الأنصار رضى الله عنهم (يحبون مَنْ هاجر إليهم) .

حياته صلى الله عليه وسلم فى قبره الشريف :

ويقول الحافظ السيوطى رضى الله عنه فى كتابه « تنوير الحلك بإمكان رؤية النبى صلى الله عليه وسلم والمَلَك » بعد استيعابه لأكثر نقول العلماء والأحاديث الدالة على إمكان رؤية النبى صلى الله عليه سلم فى المنام واليقظة ما يأتى :

قد تحصل من مجموع هذه النقول والأحاديث أن النبى صلى الله عليه وسلم حىٌّ بجسده وروحه ، وأنه يتصرف[2] حيث شاء فى أقطار الأرض وفى الملكوت وهو بهيئته التى كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شىء، وأنه يغيب عن الأبصار كما غُيِّبَتْ الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم ، فإذا أراد الله تعالى رفع الحجاب عمن أراد كرامته برؤيته رآه على هيئته التى هو عليها لا مانع من ذلك ولاداعى إلى

---

(١) وهو الأنصارى الشاعر ، وهو صاحب اللواء فى مؤتة بعد زيد وجعفر رضى الله عنهم .

(٢) أى يتصرف بإذن الله وقدرته فيما مكنه الله فيه ، ولنذكر قوله تعالى مخاطباً له صلى الله عليه وسلم (وكان فضل الله عليك عظيما) .

التخصيص برؤية المثال[١] .

ويقول الإمام نور الدين الحلبي رضى الله عنه فى رسالته المسماة « تعريف أهل الإسلام والإيمان بأن النبى صلى الله عليه وسلم لايخلو منه مكان ولا زمان» ما يأتى :

ألاَ ترى أن الرائين له يقظة أو منامًا فى أقصى المغرب يوافقون فى ذلك الرائين له كذلك فى تلك الساعة بعينها فى أقصى المشرق ، فمتى كان ذلك منامًا كان فى عالم الخيال والمثال ، ومتى كان يقظة كان بصفتَىْ الجمال والجلال وأعلى غايات الكمال كما قال القائل :

ليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أن يجمع العالم فى واحـد

ومن الأدلة التى ساقها الإمام الحلبي رضى الله عنه قوله :

١ — ثابت عند إمام الأمة الحافظ الإمام البخارى وغيره أن الملكيْن يقولان للمقبور : ما تقول فى هذا الرجل ؟ واسم الإشارة لا يُشار به إلاّ لحاضر .

٢ — إن غالبَ الأولياء والعارفين كانوا يجتمعون غالبًا بسيد المرسلين يقظة ومنامًا ، وكان العارف بالله خليفة بن موسى كثير الاجتماع به، واجتمع به فى ليلة واحدة سبعة عشر مرة وقال له : يا خليفة لاتَمَلّ[٢] مِنّا فقد مات كثير من الأولياء بحسرة رؤيتنا .

فالحجابُ من قِبَلِنا بِمُوجب مَسَاوِينا لا من قِبله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا تجد العبد متى فارق نفسه ولو بالنَّوم وأغمض عينيه يراه إذا قَسَمَ اللهُ تعالى له ذلك ، ومتى قتلها بقمعها وأماتها بردعها لم يبق بينه وبينه حجاب لا منامًا ولا يقظة .

. . . وكان السيد أبو العباس أحمد المرسى يقول : لو حُجِبتُ عنى رُؤية النبى صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين .

---

(١) عالم المثال هو العالم الذى تمثل فيه جبريل لمريم عليها السلام فى شكل بشر مع أنه ليس من البشر والأرواح القوية يعطيها الله قوة التمثل .

(٢) أى من كثرة رؤيتك لنا وظهورنا لك ، وهو تدليل منه لذلك الولى المبارك .

٣ – من الممكن المعقول المشاهد فى رأى العين أن يجعل الله تعالى نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم بمكان كمكان جعل فيه البدر فيراه الذى فى أقصى المشرق كما يراه الذى فى أقصى المغرب وهو فرد (أى بدر واحد) وضوؤه ملأ الأكوان ، وكذلك عين الشمس والزهرة وبقية النجوم فإنه قد استوى فى رؤيتها كل من كان على ظهر الأرض ، لأن الله تعالى قد جعل لها مكاناً يقتضى ذلك (أى هيأها لأن يراها من كان على ظهر الأرض) فلا بِدْعَ أن يكون قبر النبى صلى الله عليه وسلم بطيبة كذلك ، ولاغرو فى أن يجعل الله تعالى شبحاً[1] من نبينا بغير طيبة أيضاً يُرى منها ويُشاهد كذلك ما لم يكن الرائى أعمى البصيرة . . . وقال رضى الله عنه شعراً :

انظر إلى المختار كيف وجـــوده ملأ السما والأرض والأكوانا
فتراه مثل البدر فى كبد السما وضياؤه ملأ الوجودَ عيانـــا

٤ – ومن البراهين على ذلك أيضاً أنه يجوز ويمكن ويتعقل أن يجعل الله تعالى العوالم العلوية والسفلية بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم كجعله تعالى الدنيا بين يدى سيدنا عزرائيل ، فإنه سئل كيف تقبض روحَ رجلين حضر أجلُهما معاً أحدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب فقال : إن الله تعالى قد زوى لى الدنيا بجميع أكوانها فجعلها بين يدىّ كالقصعة بين يَدَىْ الآكل أتناول منها ما شئت .

٥ – ومن البراهين أيضاً على ذلك أن أمر البرزخ لايقاس على غيره ، ألا ترى لِمَلَكَىْ السؤال مع تناهى عِظَمِهما فى أضيق اللحود ، ومن أين يأتيان ؟ ومن أين يذهبان ؟ وكيف يسألان ميّتين أو أمواتاً فى وقت واحد، منهم من هو فى أقصى المشرق ومنهم من هو فى أقصى المغرب . . ؟

ويقول الإمام نور الدين الحلبى كذلك فى رسالته المذكورة :

وعند أبى داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ولايتمثل الشيطان بى » ،

---

(١) أى شخصه صلى الله عليه وسلم ..

ومعنى هذا الحديث التبشير بأن من فاز من أمته برؤيته فى المنام لا بدّ أليتة إن شاء الله أن يراه فى اليقظة ولو قبيل الموت بهنيهة ، ويسلم إن شاء الله تعالى العبد فى ذلك الوقت من المقت[1]، إذ هو وقت الحاجة[2] .

أقول : وقد ذكر العارف ابن أبى جمرة رضى الله عنه فى كتاب بهجة النفوس أن ابن عباس رضى الله عنهما رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام بعد انتقاله للرفيق الأعلى ، ولما استيقظ دخل على خالته ميمونة أم المؤمنين وأخبرها بالرؤيا فناولته مرآة فذهب ينظر فيها فلم ير وجهه بل رأى النبى صلى الله عليه وسلم بصورته التى يعرفها .

٦ – ومن الأدلة العقلية والنقلية أيضًا أن الله تبارك وتعالى نَصَّبَهُ شاهدًا على أعمال العباد خيرها وشرها ، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) ، والشاهد لا بد أن يكون حاضرًا للمشهود عليه وناظرًا للمشهود إليه فَعُلِم أنه ملأ كلَّ عالَمٍ ، وحاضرٌ فى كل مكان . فإن قيل قد قال تعالى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيد) . وقال تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) . فقد سوى بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين الأمة فى معنى الشهادة ، وسوى بَيْنه وبين الأنبياء فى ذلك المعنى أيضًا . فالجواب إن شاء الله تعالى أنه لا تسوية لأنه فى الآية الأولى قال (وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) وقال فى الآية الثانية : (ويكون الرسول عليكم شهيداً) . وورد أن هذه الأمة تشهد على جميع الأمم وتشهد لأنبيائها بالتبليغ ونبيها يُزكّيها فلا مساواة به ولا أحد فى درجته . وأما شهادة الأنبياء فلا إشكال فيها لأنهم موجودون بالأجسام فى قيد الحياة بين أظْهُرِ أممهم لأنهم شاهدون وحاضرون حسًّا ومعنى . وأما شهادة هذه الأمة فإنما هى من باب الشهادة على الشاهد ، لأنها إنما تلقّت ذلك من القرآن العظيم الصادق الوارد على لسان النبى المصدوق . فتَبَيَّن بهذا بأنه لما كان كل رسول

---

(١) أى يسلم من غضب الله تعالى .

(٢) أى وقت احتياج العبد إلى مرضاة الله تعالى .

إذا مات انتهت شريعته وأرسل رسول غيره ، ولم يكن نبيُّنا كذلك بل شريعته مستمرة ودعوته قائمة باقية إلى يوم القيامة ومعها وبعدها إذ لانبيَّ بعده، فتبين أن شهادته صلى الله عليه وسلم بموجب حضوره فى جميع العوالم وامتلأ الكون والزمان به ، فكان مثاله كما أسلفناه وكما أشرنا كبدر فى سماء علو الفضل ونحن تحته سائرون فى ضوء نوره ، متى رفعنا رءوسنا إليه ونحن فى شدة العَدْوِ أو المشى أو التأنّ أو جلسنا أو نمنا أو استيقظنا نراه معنا فوق رءوسنا، ولو مشينا إلى أقصى المشرق، ومشى آخرون إلى أقصى المغرب، وركب آخرون السفن فى لجج البحار، وصعد آخرون الجبال، وسلك آخرون القفار، كل ذا ونبيّهم محمد صلى الله عليه وسلم حاضر معهم كحضور البدر مع هؤلاء كلهم .

وأقول : بعد هذا لا تستكثر فضلَ الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال له ربُّه : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ) . والعالمون هم كل ما سوى الله تعالى، وإذا كانت رحمة الله شملت العالمين مع اختلاف أجناسهم فلا تعجب أن شرفه الله تعالى بصلاته عليه هو وملائكته ، كما أمر المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه بقوله تعالى :

(إِن اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) ، وما أعظم شرفه بهذه الصلاة الدائمة على مَرِّ الدهور ، فحدِّث عن فضله ولا حرج ، وصدق سيدى العارف الشيخ أحمد الحلوانى (والد سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراهما) . إذ يقول فى همزيته رضى الله عنه :

فليس فى القوم من يعلو عليه ولو ... نال الثريا ولا فى القـــوم أكفاء
أزكى النبيين أخلاقًا مطهرة ... وعنصر طيب تنميه أضواء
لا مجد والله إلا وهو مقتبس ... من مجده ولكلّ منـــه إنشاء[1]

---

(١) يشير إلى حديث : أول ما خلق الله نورى ومن نورى خلق كل شىء ، ويقول رضى الله عنه فى قصيدة أخرى :

أنشاك نوراً ساطعاً قبل الورى ... فرداً لفرد والبرية فى العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته ... من نورك السامى فيا عظم الكرم

وقد تُضيء مصابيحٌ معددةٌ ... من واجد وهو لا ينفك وضاء
وليس بدْعاً اتمام الأنبياء به ... فَلِلآلِيء بالإتمام(١) لألاءُ
وَهَبْه نَجْلا أما نالوا به شرفاً ... ياحسن ما شَرُفت بالنَّجل(٢) آباء
فَزَكَّ آباءَهُ طراً وكن بطلا ... فى حُبهم فهمُ القومُ الأَجِلاء
يا سيدى يا رسولَ الله معذرة ... فإنّ كفّىَ فى مَدْحيْك شلاء
وبى إليك حنين طالما ارتجفت ... منّى به أعْظُمٌ رَقَّت وأحشاء
وأنت أرحم بى منى وإن كثرت ... جرائمى وَرَحِيم الحَىّ معْطاء
دامت عليك صلاة الله واصلة ... مع السلام كذا الآلُ الأَوُدَّاءُ

زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وروى الدارقطنى والبيهقى وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ زار قبرى وجبت له شفاعتى » ومعنى وجبت أنها ثابتة لابد منها بالوعد الصادق

ويقول سيدى العارف العالم الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه : وأفاد بقوله « له » أنه يختص بشفاعة ليست لغيره ، إما بزيادة النعيم ، وإما بتخفيف الأهوال عنه ، وإما بأن يدخل الجنة بغير حساب ، وإما بغير ذلك ، وفيه بشرى بموته مؤمنا .

وللدارقطنى والطبرانى عن ابن عمر : « من حج فزار قبرى بعد وفاتى ، كان كمن زارنى فى حياتى » .

وروى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليهبطَنّ ابنُ مريمَ حكماً عادلا وإماماً مُقْسِطاً ، وَلَيَسْلُكَنّ فجّاً

---

(١) أى ختمت برسالته صلى الله عليه وسلم الرسالات السماوية فكانت مسك الختام وضياء كل ظلام لانها جاءت بعد الرسالات ، فاتت نوراً على نور .

(٢) ولئن كان ابنا من أبناء المرسلين قبله (لأنه صلى الله عليه وسلم من سلالة إبراهيم ومن ذرية إسماعيل) عليهم جميعا صلوات الله فقد نالوا به شرفاً كبيراً حيث كانت رسالته أتم الشرائع وأعمها وأبقاها على الزمن وكان صلى الله عليه وسلم أكرمهم تبعا .

حاجا أو معتمراً، وليأتينّ قبرى حتى يُسلّم علىّ ولأُرُدّنّ عليه » صححه الحاكم وسلّمه الذهبى .

ويقول صديقى فضيلة الشيخ أحمد مرسى تعليقاً على الحديث الشريف المذكور : وهو يفيد سُنيّةَ زيارة القبر الشريف ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بزيارة سيدنا عيسى له فى قبره وأقرّه[1]، ويضيف فضيلته قائلا : ولم يتفطن أحد لهذا الاستدلال قبلى ولله الحمد والمنة .

وقد قال الإمام السمهودى : روى أحمد بسند حسن : أقبل مروان يوماً فوجد رجلا[2] واضعاً وجهه على القبر ، فأخذ مروان برقبته ثم قال : هل تدرى ما تصنع ؟ فأقبل عليه فقال : نعم ، إنى لم آت حجراً، إنما جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم آت الحجر ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لاتبكوا على الدين إذا ولِيَهُ أهله ولكن ابكوا على الدين إذا وَلِيَهُ غيرُ أهله » .

وجاء فى « جواهر البحار » نقلا عن المقرى صاحب « نفح الطيب » حكاية طريفة وهى : ذكر جماعة أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والحجاز وفاتح البلاد ومنقذها من عبدة الأصنام ، وهو من أجَلّ ملوك الإسلام ، أهديت له مروحة مكتوب فى أحد وجهيها :

هذه هدية ما أهْدى مثلها لك ولا لأبيك ولا لأحد من الملوك ، وكانت الهدية من شريف المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام ، فغضب السلطان فقال له حامل الهدية ، أرجو أن تقلب الوجه الآخر ، فقلَبَه فوجد فيه هذين البيتين :

أنا من نخلة تجاور قبراً ... سادَ منْ فيه سائر الخلق طُرّا
شملتنى سعادة القبر حتى ... صرتُ فى راحة ابن أيوب أقْرا[3]

---

(١) أى لم يعترض الرسول صلى الله عليه وسلم على زيارة سيدنا المسيح عليه السلام بل أقرها ووافق عليها .

(٢) قالوا إنه أبوأيوب الأنصارى رضى الله عنه .

(٣) أى يقرأ السلطان خبرى فيما هومكتوب .

فقال السلطان صلاح الدين : صدق والله، وفرح بها، ووضعها على محاجره[1] وجعلها خير متاجره .

وفى هذه المناسبة أذكرك بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذع نخلة قبل أن يُصنع المنبر ، فلما تحوَّل صلى الله عليه وسلم إلى المنبر حَنَّ الجذع وأنَّ لفراقه صلى الله عليه وسلم ، فَخَيَّره صلى الله عليه وسلم بين أن يُغرس ويُورق ، وبين أن يصبر ويكون فى الجنة ، فاختار أن يصبر ، وفى ذلك يقول سيدى العارف العالم الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى رضى الله عنه :

والجذع حَنَّ وخار إذ فارقتـــه فجبرته وخواره عنـــدى نَغَمْ
فالمرءُ إن لم تَعْرُهُ لك هِزَّةٌ كالجذع فهو مُضَلَّل أعمى أصَمْ

وأذكر واقعة طريفة كانت لى مع أخى فى الله المرحوم السيد بكرى حامد الموظف السابق بالبريد ، فقد كان محتفلا فى بيته كعادته السنوية بذكرى المولد النبوى الشريف ، وكان على رأس الحفل سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى نوّر الله ضريحه ، فأمرنى أن أقول كلمة فى الذكرى العاطرة، فكان فيما قلته من الشعر البيتان المذكوران ، فَتَهَيَّمَ الأخ بكرى وأقبل فى سكرة النشوان كأنما يريد أن يضربنى ، ثم ألقى بنفسه على الأرض ، وأرغى كالإبل ، واضطربت رِجلاه فصارتا تتحركان يمينًا وشمالا ، فَسَكَتُّ عن الكلام ، وفكوا عنه رباط الرقبة وبعد قليل قال سيدى الشيخ : لقد سَكَتَّ فَتَكَلَّمْ ، فأتممتُ حديثى ، وكنت أمزح معه بعدها وأقول له : يا سيد بكرى ، تريد أن تضربنى وأنا ضيف عليك فى بيتك ، فكان يقول : إنى لا أجن إلا حين أسْمَعُك تتكلم ، اللهم ارحمه وارحم أسلافنا رحمة واسعة، واغفر للأولين منا والآخرين، يا أكرم الأكرمين وأجود الأجودين .

ويقول بعض العارفين : إنى والله أجد محبته صلى الله عليه وسلم فى قلبى وروحى وجسمى وشَعَرى وَبَشَرى[2] كما أجد سريان الماء البارد فى وجودى إذا شربته بعد الظمأ الشديد فى الحر الشديد ، وَحُبُّه صلى الله عليه وسلم فرض واجب على كل مؤمن ، قال تعالى: (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أى وضع المروحة على عينيه احتراماً . (٢) البشر هو ظاهر جلد الإنسان .

« ان يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه وماله وولده»؛ فإذا لم تجد هذه المحبة التي وصفتها لك فاعلم أنك ناقص الإيمان ، فاستغفر الله ، وتضرّع إليه وتُب من ذنوبك ، وتولَّع بدوام ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والتأدّب معه ، والقيام بما أمر مع اجتناب ما نهى ، لعلك تنال ذلك فتحشر معه ، لأنه صلى الله عليه القائل : « المرء مع من أحب » ، وقد قال الشهاب الخفاجي في كتابه « ريحانة الألباب » : اعلم أنه في حديث صحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أنت أحبُّ إليّ من نفسي وأهلي ومالي ، وإني إذا ذهبت لداري لاتطيب نفسي حتى آتيك وأراك ، فإذا متَّ أنتَ كنتَ في أعلى مقام فأخشى ألاَّ أراك ، فلم يُجبه الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله عز وجل :

(وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرءُ مع من أحب » .

ولو تأمل هؤلاء الفاترون في محبته صلى الله عليه وسلم لوجدوا أنهم في صلاتهم يسلمون عليه في التشهّد ، فهل هم يُسلّمون بقولهم (أيها النبي) على حيّ حاضر أو على ميّت غائب ؟ وإذا كان سلامهم في التشهُّد على ميّت غائب فإن سلامهم يكون عبثًا وتبطل به الصلاة .

وأقول : ألم يتدبر الفاترون في محبتهم قول الله تعالى في سورة الكهف : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) . أَلَا يلاحظون أنَّ كلباً غير مكلف صحب أهل الكهف الصالحين فعدَّه الله منهم بفضله ، ولم يقل ثلاثة والرابع الكلب بل قال رابعهم ، وسادسهم وثامنهم ؛ وجعل من شرف ذلك الكلب الذي أحب الصالحين وازمهم أن يذكر بشرف محبتهم وصحبتهم على ألسنة العابدين في المحاريب . فكيف بالمؤمن الذي يلتزم محبة رسول الله وشرعه .

الزيارة وشدّ الرحال :

ويقول الإمام السمهودى : وإذا ثبت أن الزيارة قُرْبَة ، فالسفر إليها قُرْبَةٌ[١] كذلك، وقد ثبت خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة لزيارة الشهداء، وقد أطبق (اتفق) السلف والخلف وأجمعوا عليه . أما حديث « لا تُشَدُّ الرِّحَال إلاّ إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » فمعناه لاتُشدّ إلى مسجد لفضيلة ، لما فى رواية لأحمد بسند حسن عن أبى سعيد الخُدْرى « لاينبغى للمَطِىّ أن تُشَدَّ رحالها إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » ، وللإجماع على شد الرحال لعَرَفَةَ لقضاء النسك (الحج) وكذلك للجهاد والهجرة من دار الكفر وللتجارة ومصالح الدنيا[٢] .

الزيارة سنة واجبة :

وقد كره الإمام مالك رضى الله عنه أن يقال زُرْنا[٣] قبر النبى صلى الله عليه وسلم لأن الزيارة من شاء فعلها ومن شاء تركها ، وزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم واجبة قال عبد الحق يعنى من السنن الواجبة ، وقال السادة الحنفية زيارته صلى الله عليه وسلم من أفضل المندوبات والمستحبات بل تَقْرُبُ من الواجبات . وقال القاضى ابن كج من أصحاب الشافعية : إذا نذر أن يزور قبر النبى صلى الله عليه وسلم فعندى أنه يلزمه الوفاء وجهاً واحداً ، وإذا نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان ، والقطع به هو الحق لأنه قُربةٌ مقصودة للأدلة الخاصة فيه ، وقد وجب من جنس ذلك الهجرة إليه فى حياته صلى الله عليه وسلم .

آداب الزيارة :

ومن الآداب التى يراعيها الزائرُ إذا دخل إلى حرم المدينة أن يقول بعد الصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أى يتقرب المؤمن بها إلى الله تعالى .

(٢) فليس المقصود من الحديث النهى وإنما هو لبيان فضيلة المساجد الثلاثة عما عداها ، وكان صلى الله عليه وسلم يشد رحاله إلى مسجد قباء وهو غير الثلاثة .

(٣) كأنه يود أن يقول الزائر : أدينا واجب الزيارة بدلا من زرنا ، لأن الزيارة سنة واجبة .

اللهم إنَّ هذا هو الحرم الذى حرَّمتَه على لسان حبيبك ورسولك صلى الله عليه وسلم ودعاك أن تجعلَ فيه من الخير والبركة مِثْلَىْ ما هو بحرم بيتك الحرام فحَرِّمْنى على النار ، وأمِنِّى من عذابك يوم تبعث عبادَك ، وارزقنى ما رزقته أولياءك وأهل طاعتك ، ووفقنى فيه لحسن الأدب وفعل الخيرات وترك المنكرات .

وفى كتاب الشفا أن أبا الفضل الجوهرى لما ورد المدينة زائراً وقرب من بيوتها ترجَّل (نزل عن دابته) باكياً وأنشد :

ولما رأينا رَسْمَ منْ لم يدَع لنا ... فؤاداً لعرفان الرسوم[1] ولا لُبّا
نزلنا عن الأكوار[2] نمشى كرامة ... لمن بان عنه أن نلم به ركبا

ومن آداب الزيارة أن يبتدئ الزائر بتحية المسجد قبل أن يأتى القبر الشريف ، وهذا قَوْل الإمام مالك ، ورخّص بعض المالكية فى تقديم الزيارة على الصلاة وقال كل ذلك واسع ، وقال ابن حبيب : يقول الزائر إذا دخل : باسم الله والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم — يريد أنه يبتدئ بالسلام فى موضعه — ثم يركع[3] ، ولو كان دخوله من الباب الذى بناحية القبر ومروره عليه فوقف فسلم ثم عاد إلى موضع يصلى فيه لم يكن ضيقاً[4] ، يريد ابن حبيب الإتيان أولاً بالسلام المستحب لداخل المسجد لحديث :

« إذا دخل أحدكم المسجد فيسلم على النبى صلى الله عليه وسلم »

ويتوجّه بعد تحية المسجد إلى الضريح الشريف ، مستعيناً بالله فى رعاية الأدب بهذا الموقف المُنيف[4] ، فيقف بخضوع ووقار ، وذلة وانكسار ، غاضّ الطرف ، مكفوف الجوارح ، واضعاً يمينه على شماله كما فى الصلاة فيما قاله الكرمانى من الحنفية ، مستقبلا للوجه الشريف ، ولا تقرب من قبره إلاّ كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان على قيد الحياة .

---

(١) الرسم هو الأثر .

(٢) الكور جمعها أكوار أى الرحل والمعنى أنه لم يرد أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم راكبا بل نزل عن ظهر البعير احتراماً و إجلالا لمقامه الشريف حيث بدت معالم المدينة المنورة .

(٣) أى يصلى تحية المسجد .

(٤) أى مباح .

(٤) المهيب .

وقال المجد اللغوى : روينا عن عبد الله بن المبارك قال : سمعتُ أبا حنيفة يقول : قَدِمَ أيوب السختيانى وأنا بالمدينة فقلت لأنظُرنَّ ما يصنع ، فجعل ظهره مما يلى القبلة ووجهه مما يلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى غيرَ مُتَبَاك[1] فقام مقام رجل فقيه . وعن أصحاب الشافعى وغيره يقف وظهره للقبلة ووجهه إلى الحضرة[2] وهو قول ابن حنبل . ولابن زُبالة عن سلمة بن وردان قال : رأيتُ أنس بن مالك إذا سلَّم على النبى صلى الله عليه وسلم يأتى فيقوم أمامه .

ولينظر الزائر إلى أسفل ، ولا يشتغل بشىء من الزينة فإنه صلى الله عليه وسلم كما جاء فى « الإحياء » عالم بحضورك وقيامك وزيارتك له ، فمثّل صورته الكريمة فى خيالك ، وأحضر عظيم رتبته فى قلبك ، ثم قل من غير رفع صوت ولا إخفاء ، مع مراعاة الحياء والوقار :

السلام عليكَ أيها النبىُّ ورحمة الله وبركاته (ثلاثا) السلام عليك يا رسول رب العالمين ، السلام عليكَ يا خير الخلائق أجمعين ، السلام عليكَ يا سيد المرسلين وخاتم النبيين ، السلام عليكَ يا إمام المتقين ، السلام عليك يا قائد الغُرّ المحجّلين ، السلام عليك أيها المبعوث رحمة للعالمين ، السلام عليك يا شفيعَ المذنبين ، السلام عليكَ يا حبيبَ الله ، السلام عليكَ ياخيرة الله ، السلام عليك يا صفوة الله ، السلام عليكَ أيها الهادى إلى الصراط المستقيم ، السلام عليكَ يا من وصفه الله بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) وبقوله (بالمؤمنين رءوف رحيم) السلام عليك يا من سَبَّح الحصى فى يديه وحَنَّ الجِذْعُ إليه، السلام عليكَ يامن أمرنا اللهُ بطاعته والصلاة والسلام عليه ، السلام عليك وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ، وملائكة الله المقربين ، وعلى آلك وأزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين ، وأصحابك أجمعين ، كثيراً دائماً أبداً كما يحب ربنا ويرضى ،

---

(١) بكى فعلا .

(٢) الوجه الشريف .

جزاك الله أفضلَ ما جَزى رسولا عن أمته ، وصلَّى الله عليكَ أفضل وأكملَ وأزكى وأنمىَ صلاة صلاها على أحد من خلقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أنَّكَ عبده ورسوله وخيرته من خلقه ، وأشهد أنَّكَ قد بلَغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونَصحْتَ الأُمة ، وكشفت الغمَّة ، وأقمت الحجَّة ، وأوضحت المَحَجَّة[1] ، وجاهدتَ فى الله حق جهاده ، وكنتَ كما نَعَتَكَ اللهُ فى كتابه حيث قال :

(لقَدْ جَاءَكمْ رَسُول مِنْ أَنفسِكمْ عَزِيز عَلَيْهِ مَا عَنِتمْ حَرِيصٌ عَلَيْكمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم) . فصلوات الله وملائكته وجميع خلقه فى سمواته وأرضه عليكَ يا رسول الله ، اللهم آته الوسيلةَ والفضيلة ، وابعثه مقامًا محموداً الذى وعدته ، وآته نهاية ما ينبغى أن يسأله السائلون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدَر خيره وشره ، اللهم فثبتنى على ذلك ، ولاتردنا على أعقابنا ، ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وَهَبْ لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

اللهم صلى على سيدنا محمد عبدك ورسولك ، النبىّ الأمىّ ، وعلى آله وأزواجه وذريته ، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آل سيدنا محمد ، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد .

هذا ومن ضاق عليه الوقت أو عجز عن حفظ ذلك ، فإنه يقتصر على بعضه وأقلّه : السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم .

وفى المُسْتوْعَب لأبى عبد الله السامرى الحنبلى : . . . ثم يأتى حائط القبر فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه والقبلة خلف ظهره والمنبر عن يساره ويذكر السلام والدعاء ومنه : اللهم إنك قلت فى كتابك لنبيك عليه الصلاة والسلام : (ولو أَنّهمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفسَهمْ جَاءُوك فَاسْتَغْفَروا الله

(١) الطريق المستقيم .

واستغفر لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا الله تواباً رَحيماً) ، وإنى أتيت نبيَّك مستغفرًا فأسألك أن توجب لى المغفرة كما أوجبتَها لمن أتاه فى حياته .

وعن ابن عمر — رضى الله عنه — وغيره الاقتصار جدًّا . وعن الإمام مالك رضى الله عنه يقول : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ؛ واختار بعضهم التطويل ، وعليه الأكثر .

ثم إن كان أوصاك أحد بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقل :

السلام عليك يا رسول الله من فلان بن فلان ، أو تقول : فلان بن فلان يُسلّم عليك يا رسول الله ، أو نحو ذلك .

ثم يتحرك الزائر إلى يمينه قدر ذراع ، فيصير تجاه سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيقول : السلام عليك ياسيدنا أبا بكر الصديق ، يا صفىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانيه فى الغار ، ورفيقه فى الأسفار ، جزاك الله عن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الجزاء .

ثم يتحرك إلى يمينه مرة أخرى قَدْرَ ذراع فيصير تجاه سيدنا عمر ، فيقول : السلام عليك يا سيدنا عمر الفاروق ، الذى أعز الله به الإسلام ، جزاك الله تعالى عن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خير الجزاء . هذا ما ذكره الإمام النووى وغيره .

وذكر ابن حبيب (المالكى) السلام والثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعطف عليه قوله : السلام عليكما يا صاحبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزيرى صدق فى حياته ، وخلَفتماه بالعدل والإحسان فى أمته بعد وفاته فجزاكما الله تعالى على ذلك مرافقته فى جنته وإيانا معهم برحمته .

قال الإمام النووى وغيره : ثم يرجع الزائر إلى موقفه قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتوسل به ويشفع به إلى ربه .

ويرحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول مخاطبًا له صلى الله عليه وسلم :

مدحتُ المالكين فــزدتُ قدراً وحين مدحتك اقتدت السحابا

سألت الله في أبنـاء ديـني ... فإن تكن الوسيلة لي أجـابـا
فما للمسلمين سـواك حصـن ... إذا ما الضر مسّهمو ونابـا

وقال بعضهم في شعر رقيق :

من زار قـبـر محمـد ... نال الشفـاعـة في غد
بالله كـرر ذكـره ... وحـديثـه يـا منشـدي
واجعل صلاتك دائمـاً ... جهـراً عليـه تهتـدي
فهـو الرسـول المصطـفى ... ذو الجود والكـف النّدى
وهو المشفـع في الورى ... من هـول يـوم المـوعـد
والحـوض مخصـوص بـه ... في الحشر عـذب المـورد
صـلى عليـه ربنـا ... مـا لاحَ نجـمُ الفَـرْقَد

شيخي والحجاز :

وفي هذا المقام أضع تحت نظر القارئ الكريم بعض ما تغنى به إلهاماً فَوّرياً من عطاء الله لأوليائه شيخي العارف بالله سيدي الشيخ على عقل قدّس الله سره ؛ فقد قال يوماً فيما قال من كلام طويل :

دع زمانـاً مضى وَعُدْ بي لأرض ... شغفتني بنـورهـا المتـلالي
بين بيـداء روعت ووهـاد ... وذئاب تختـال في إقبـال
ونجوم مثل الحُباب على الكأس ... تسامت أو كالحُلَى واللآلي
قيل ماذا تريد من هـذه الأرض ... أتبغـي البقاءَ في جمـع مال
قلت والله غيرُ أحمـد مـالي ... بَعْد ربّ العبـاد من آمـال
يا حبيبي رضـاك دنيـا ودين ... فهما باتباعكم صَحَّالـي

بشرى الوصول :

وأذكر أنه حين سَعدتُ بزيارة المدينة المنورة لأول مرة (في عام ١٩٣٤م) كان معي صديقي المرحوم الشيخ محمد محروس محرم وكان في ذلك الوقت واعظاً لمركز الأقصر ، والتقى بنا « المِدَعي »[1] الذي يصحبنا في زيارة الآثار المباركة ،

---

(١) كلمة عامية تطلق على من يرشد الزائر إلى المزارات بالمدينة المنورة .

فطلب من الشيخ مبلغاً لأتعابه فاستكثره الشيخ وقال له إننا علماء ولسنا فى حاجة للإرشاد كغيرنا ، فرد عليه « المدعى » وقال : وهل نحن نأخذ منكم أجرة ؟ قال لقد طلبت مبلغاً كبيراً ، فقال إنه ليس أجرة ولكنه بشرى وصولكم للمدينة المنورة ، فطربت من تلك الإجابة وأقسمت على صديقى أن يعطيه ما طلبه كاملا غير منقوص ، فأعطاه ما طلب ، فلله ما أرق الطلب وما أسمى الأدب . ولئن سماها « المدعى » بشرى الوصول فإنى أسميها بشرى الوصال ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه لا يزار إلا بإذنه ، وما أسعد الزائر فى دنياه بإذنه الشريف ، وفى أخراه بشفاعته يوم يقوم الناس لرب العالمين .

سيدى العارف الحلوانى الكبير والملائكة :

ومما وقع لسيدى العارف الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه (وهو والد شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه) أنه بات ليلة بالحرم النبوى بإذن الوالى ، واستمر طول الليل يقرأ القرآن ، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف مستقبلا القبر الشريف على صاحبه أفضل وأزكى تحية ، فبينما هو كذلك رأى أشخاصاً نورانية نازلة من السماء على القبر الشريف ، فأدرك فى الحال أنها من الملائكة ، وكان معه الشيخ محمد الغرباوى البلقاسى وكان نائماً ، فأيقظه ليُريَه هذه الأنوار ، فدهش ورُعب ، فأشار عليه سيدى الشيخ الحلوانى بالنوم ، قال : وبقيت هذه الأنوار إلى الفجر .

ويقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه — كما جاء فى كتاب « الفيض الرحمانى » الذى ألفه ابنه المبارك المرحوم الشيخ محمد عبد العزيز الحلوانى غفر الله له « ذكر ابن حجر المكى فى كتابه الجوهر المنظم ، كما ذكر البرزنجى فى كتابه نزهة الناظرين ، روى ابن المبارك والإسماعيلى وابن بشكوال والبيهقى والدارمى وابن الجوزى عن كعب الأحبار أنه « ما من يوم وليلة إلا وينزل عند الفجر سبعون ألفاً من الملائكة يحفّون بقبر النبى صلى الله عليه وسلم ويصلّون عليه إلى الليل ، ثم ينزل سبعون ألفاً كذلك الفجر وهكذا . . . إلى أن يقوم صلى الله عليه وسلم من قبره فى سبعين ألفاً يزفونه وفى رواية يوقّرونه » .

رأى العلامة ابن حجر :

ويترل العلامة ابن حجر . فإن قلتَ ما معنى يصلّون عليه مع إفادة آية (إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) أن جميع الملائكة مع كثرتهم التى لايحيط بها إلاّ خالقهم يصلون عليه دائمًا ، قلتُ معناه أن هؤلاء السبعين ألفًا يُؤمرون بصلاة مخصوصة مناسبة لوقوفهم فى حضرته صلى الله عليه وسلم .

إكرام والدتى فى الرحاب النبوى :

وقد حدثتنى المرحومة والدتى عليها الرضوان (وكانت من الصالحات القانتات المباركات كما كانت مستجابةَ الدعوات) بما أكرمها الله به عندما تشرَّفتْ لأول مرة بزيارته صلى الله عليه وسلم فقد اسْتُقْبِلت من جهة القبر الشريف بعطر زكى جدًّا وقعت نقطة منه على وجهها ونقطة أخرى على خمارها ، وقالت ما شممت فى حياتى رائحة أزكى منه بل ولا رائحة تقاربه . وأضافت طيَّب الله ثراها أن الرائحة الزكيّة بقيت فى خمارها ستة أشهر ، وحين حدثتنى بذلك قلتُ لها لاتَقْصِيه على غيرى ، فإن ذلك مما يحسدك الناس عليه .

بين شاب صالح وبينى :

ومن طريف ما وقع لى فى إحدى زياراتى للمدينة المنورة ، أنّى لقيتُ شابًّا صالحًا من بنى وطننا العزيز فقال لى : ألست السيد حسن الملطاوى ؟ قلت : بلى إننى هو ، هل رأيتنى قبل ذلك ؟ قال : نعم . إنك حاضرتنا فى جمعية الشبان المسلمين بمغاغة فى سنة ١٩٤٨ . ومن يومئذ أعرفك ، فتذاكرنا معًا فى زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فيها من الأنس والسعادة والبركة . وقلتُ له : أتدرى أيها الأخ . لولا كرم ضيافة الرسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعه . لما استطاع القادم أن يُقْرئه السلام لما أعطاه الله من الهيبة التى تخرس الألسنة . فبدا عليه التعجب وقال : كأنك تصف ما وقع لى فى أول وقفة بين يديه صلى الله عليه وسلم . قلت : فماذا كان من أمرك . قال : حُبِسْتُ عن الكلام فلم أستطع سلامًا ولا قولا . وانصرفت عاجزاً . وقلت فى ذلك شعراً . فسألته عما قال

فكان مما رواه من شعره وأذكره :

عَجَبٌ لسانٌ عند قبرك يَنْطِق ... خُرْسُ الشِّفاه لديك هن الأصدق
غَشَّى الجلالُ لديك كلَّ مشاعرى ... فوقفت مضطربًا وقلبى يخْفِقُ

مرارة الفراق :

وإذا كان ذلك فى لحظات اللقاء ، فإنك تقدر الشدة التى يلقاها الزائر عند الوداع ، وقد كان يزاملنى فى الزيارات الصديق الصالح المرحوم الحاج محمود جنوب ، وكان تاجراً بشارع الأزهر ، وفى مرة بكى عند مغادرة الحرم الشريف مودعًا ، فقلت له : لاتبك فإننا عائدون إن شاء الله كل عام : فقال : وهل يخفف عنى ألمَ الفراق إلا نية العودة ، فأعجبنى هذا المعنى ، وعندما عدت للوطن العزيز ، رجوت صديقى الوفىّ المرحوم الشاعر الأديب محمد جاد الرب ، أن يصوغ ذلك المعنى فى بيتين من شعره العبقرى الذى يُعجبنى كلَّ الإعجاب ، فقال غفر الله له :

أسكان دارِ العزّ حان رحيلنـــا ... على رغمنا منى الســـلامُ عليكمو
وليس يسلينى عن البعد عنكمو ... سوى نيتى أنى أعود إليكمـــو

فأطربنى ما قال .

تحية القدوم عند تكرار الزيارة :

ثم رجوته أن يصوغ على لسانى أبياتاً أنشدها بين يديه صلى الله عليه وسلم إذا قدمت عليه فى زيارة لاحقة ، فقال طيب الله ثراه :

لقد عدْنا وكان العَوْدُ أحمد ... ســـلامًا يا حبيبى يا محمـــد
سعيدٌ مـــن يُحبُّك من بعيد ... ومن يسعى لبابك كان أسعـــد
فَجُدْ بالوَصْلِ للمشتاق فضلا ... فأنت من السحاب الجوْدِ أجود
وصل عليـــه يـــاربى وســـلم ... ووفّق كلَّ مشتاق ليشهـــد

فقلت له : أرجو أن تغير الشطر الثانى من البيت الأول ، قال ولِمَ ؟ قلت لا أستطيع أن أخاطب به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال إنى قصدت

أن يختم الشطر الأول بأحمد والثانى بمحمد ، ولا يعاب فى الشعر أن يذكر باسمه صلى الله عليه وسلم ، قلت إنى لا أتكلم فى سلامة الشعر ولكنى أتكلَّم فى مذاق الزيارة وأدبها ، قال : إنى أعتذر من تغيير ليس له فى رأيى مقتض ، فقلت إنك صنعت الشعر على لسانى لا على لسانك أو لسان غيرى ، وأنا الطالب وأنت المتفضل بتحقيق ما طلبتُ ، قال : ولكنى أعتذر :

فضحكت وقلت: ستضطرنى أن أغير الشطر بنفسى ولو أنى لست شاعراً أو أديباً مثلك ، قال فماذا تقول ؟ قلت : أقول ما أحب ، دون تدخل الشعراء، فألح أن يسمع منى ما أحب أن أقوله ، فقلت :

لقد عدنا وكان العود أحمـــد سلاما يا مُقَرَّب يا مُؤيَّـــد

فقال : التركيب الأول أحسن ، قلت له : ولو ، وضحكنا . اللهم اجمعنا بأحبابنا الذين سبقونا بالإيمان فى مستقر رحمتك يا أرحم الراحمين .

واجبات الزائر بالمدينة المنورة :

وعلى الزائر فى أثناء إقامته بالمدينة أن يتصدّق بما يستطيع ، وأن يُكرّم أهل المدينة باعتبارهم جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويخص برعايته وأدبه السادة الأشراف من سادتنا آل البيت لحديث مسلم « أذكركم الله فى أهل بيتى » وما أرق قول القائل :

فياساكنى أكنافَ طيْبة كُلُّكُم إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

وليغتنم الزائر فى أثناء إقامته بالمدينة ملازمة المسجد إلا لمصلحة راجحة ، وليحرص على ختم القرآن العظيم به ، وعلى أن يبيت فيه ولو ليلة يُحْييها بالقيام والطاعة .

المزارات بالمدينة المنورة :

يُستحب الخروج إلى البقيع كل يوم بعد السلام على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم خصوصاً يوم الجمعة قاله الإمام النووى ، وليأت قبور الشهداء بأحد ، ويزور جبلَ أحد فى الصحيح : «أحدٌ جبلٌ يُحبنا ونُحبه» . ويُستحب استحباباً

متأكداً إتيان مسجد قباء وهو فى يوم السبت أولى ، فيتوضأ ويذهب إليه ، ويستحب إتيان بقية المساجد والآثار المنسوبة للنبى صلى الله عليه وسلم . وفى مناسك الإمام خليل المالكى بعد ذكر استحباب زيارة البقيع ومسجد قباء ونحوهما : وهذا فيمن كثرت إقامته وإلا فالمقام عنده صلى الله عليه وسلم لاغتنام مشاهدته أحسن .

وليلاحظ الزائر مدةَ إقامته بالمدينة جلالَتها ، وتردده صلى الله عليه وسلم فيها ، ومشيه فى بقاعها ، ومحبته لها ، وتردد جبريل عليه السلام بالوحى فيها ، ولا يركب بها دابة ، وقد كان الإمام مالك يقول : إنى أستحيى من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة ، وفى رواية أخرى : أخشى أن يقع حافرُ الدابة فى محل مشى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أدب مغادرة المدينة :

وإذا أراد الزائر مغادرة المدينة المنورة ، فليودع المسجد النبوى الشريف بركعتين بالمصلى النبوى إن أمكن أو ما قرب منه، ثم يقول بعد الحمد والصلاة والسلام :

اللهم إنى أسألك فى سَفَرِنا هذا البِرَّ والتقوى ، ومن العمل ما تُحب وترضى ، إلى غير ذلك مما يستحب للمسافر ، ويدعو فيما يدعو به قائلا : اللهم لاتجعله آخر العهد بهذا الحرم ، ويَخْتِم بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، ويأتى القبر الشريف ، ويسلم ويدعو بما تقدم أولا ويقول : نسألك يا رسول الله أن تسأل الله تعالى ألا يقطع آثارَنا من زيارتك ، وأن يعيدنا سالمين ، وأن يبارك لنا فيما وهب لنا ، ويرزقنا الشكر على ذلك .

اللهم لاتجعله آخر العهد بحرم رسولك صلى الله عليه وسلم وحضرته الشريفة ، ويسِّر لى العَوْد إلى الحرمين سبيلا سهلة ، وارزقنى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

والأصل فى صلاة الركعتين حديث « كان لايَنْزِل[1] منزلا إلاّ ودّعه بركعتين »، ويكون الزائر بعد انصرافه متعلق القلب بالزيارة ، مشتاقًا إلى تكرارها كما قيل :

---

(١) أى الرسول صلى الله عليه وسلم .

أحنّ إلى زيارة حيّ ليلى وعهدى من زيارتها قريب
وكنت أظن قُربَ الدار يُطفى لهيبَ الشوق فازداد اللهيب

وينوى الزائر بعد ذلك أن يلتزم التقوى، ويحذر المعاصى حتى يلقى الله تعالى ، وليكن على باله قوله تعالى فى سورة الفتح : (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً) .

عطف نبوى كريم :

وقد عطف علىّ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إحدى زياراتى . وكان ذلك العطف أحب إلىّ والله مما طلعت عليه الشمس . فمنذ أكثر من عشرين عاماً كنت متشرّفاً بزيارته ، وأردت أن أرحل إلى مكة المكرمة معتمراً وحاجّاً ، فاغتسلت ولبستُ ملابس الإحرام استعداداً لعقد النية بالعمرة فى مطار المدينة . ودخلت الحرم للتوديع ، وتشرّفت بالوقوف بين يديه صلى الله عليه وسلم ، وخرجتُ لأركب السيارة من ميدان المناخ ، وبينما أنا سائر فى شارع العَيْنِيَّة . وإذا بصوته الشريف يَرِن فى أذنى بقوله المبارك : شيّعتكم السلامة ، ولم يكن لى عهد بلفظ شيعّتكم إذ كان المعروف لنا : رافقتكم أو صَحِبتكم . فما كدت أسمع صوته الشريف حتى داخلتنى حالة روحانية ، فانهلّت دموعى على خدى وتوالت ،

فلم أملك دموعَ العين منّى ولا النفس التى جاشت مرارا

وظن من معى أن ذلك البكاء من أثر الفراق ، ولم يدر أنه من أثر الحنان الأبوىّ والعطف النبوىّ على ضعفاء الأمة .

ثم وصلنا إلى المطار . وركبنا طائرة من طراز « داكوتا » كانت من مخلفات الحرب ، وما كادت تصعد فى السماء حتى تعرضت للمطبات الجوية ، فإذا هى تنزل حتى نقول لا تَصْعَد ، وتصعد حتى نقول لاتنزل . واضطرب الركاب ، وخرج مساعد الطيار ليطمئنهم ، ومنهم من تقايأ ، ومنهم من تغيّر لونه وامتقع ، فكنت أقول لهم : لاتخافوا ففيهاسلامة إن شاء الله ، وأدركت سرّ ذلك العطف عندئذ :

وأنه صلى الله عليه وسلم طمأننا بلُغَةِ الجَمْع لا بلُغَةِ المفرد فقال « شيَّعتكم السلامة » لتشمل الجميع سلامة الله على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت كلمته سكناً لنا جميعاً . فما أبرّه صلى الله عليه وسلم . وما أرأفه بالمؤمنين وما أرحمه بزائريه .

صديق يحيينى :

وأمتع القارئ الكريم بأبيات من قصيدة حيَّانى بها صديقى العبقرى الشيخ الصاوى شعلان من نحو عشر سنين . وكنت قد عدت من العمرة والزيارة وسكنْت دارى التى بنيتُها بمدينة الأوقاف . قال عفا الله عنه ومدّ فى عمره :

بالله كيف شهدتَ أنوار الحِمَى ... تشفى بمرآها المحبَّ المغرما
ودخلتَ من باب السلام على الذى ... صلى عليه ذو الجلال وسلما
وسعدت يا حسنَ الرضا برحابه ... فبلغت تكْريماً وعدت مكرَّما
ووقفتَ بين الصاحِبَيْنِ تَخَشُّعا ... وكأنما القمران فيضٌ منهما
فى باب جبريل ومهبطِ وحْيه ... يجد الدعاءُ إلى الإجابة سُلَّما
ورأيت جنات البقيع نواضراً ... تختال أجداثاً وتشرق أعظما
أصغيت فى أحُد إلى شهدائه ... قد كاد حمزة فيه أن يتكلما
جمعتهم الفردوسُ تحت ظلالها ... بالسفح أقماراً تضىء وأنجما
فى كعبة الله اعتمرت مقبّلا ... من وجهها الركنَ العلىَّ الأعظما
ومِن الطَّواف إلى المقام إلى الصفا ... يا فوز مشتاق سعى وترسما
المرءُ يكرم ضيفَه بشرابه ... والله أكرمُ حين يَسقى زمزما
يستقبل البيت الجديد مناره ... لو يستطيع مشى إليك مُسَلِّما
هو منزل فى مسجد فى روضة ... وجد المواهبَ كلَّها من يَمَّما